الفصل الخامس عشر

العلاقات مع اليمن

بعد تأسيس نظام المحمية عام ١٩٢٦م على إمارة الإدريسي في منخفضات عسير والسيطرة على المناطق الشمالية من الحجاز حتى حدود العقبة – معان التي ألحقت بالأردن إثر عمليات الجيش البريطاني، بسط ابن سعود سلطته على كل المناطق المعروفة. وفي الأردن والعراق والكويت والبحرين وقطر والساحل وعُمان واجه الملك مطامع بريطانية لم يكن في مقدوره التصدي لها، وخلف الربع الخالي تقع منطقة حضرموت التي لم تكن محل طموحه، ولم تكن محل إغراء البريطانيين في عدن، كما لم تعرها اليمن اهتمامًا، وظلت اليمن بحدودها الضعيفة مع المملكة محل اهتمام الملك أزاء طموحات الإمام يحيى لضم نجران وبعض المناطق الإدريسية لليمن. وكما فعل الملك حسين في واحة الخرمة من قبل، كان الإمام يحيى هو الذي أثار حفيظة ابن سعود للتحرك المباشر في ذلك الاتجاه بإظهار طمعه في تلك الديار.

بعد ضم الحجاز حرك ابن سعود جيوشه جنوبًا لمراقبة أنشطة جارته اليمن، أما نجران ذات الواحة المشهورة بخيرها الوفير فكان رأيه منحها الحرية لتكون عازلاً بينه وبين اليمن على الجانب الصحراوي خلف الجبال. وكانت جيوش الطرفين تتحرك في حدود غير مرسومة وحدثت مناوشات حدودية، وأخطأت القوات السعودية باحتلالها قرية العرو عام ١٩٣١م وإن لم تكن

هناك خرائط متوفرة لأي من الأطراف لتحديد من المخطئ في مثل هذه الحالات، هذه الحادثة قادت تدريجيًا لبروز أهداف اليمن، وهي منطقة نجران.

وجاءت قوات يمنية ونزلت بالواحة في شتاء عام ١٩٣١م/ ١٩٣٢م لمجابهة ابن سعود، ولتبرير احتلالهم للواحة وأهلها أسرعوا لمن عُرفوا بعدائهم وهدموا منازلهم وقطعوا أشجارهم، أجبرت شكاوى هؤلاء الملك للتحرك، وقام خالد ابن لؤي وأسرع إلى المنطقة بجيش من الإخوان في ربيع عام ١٩٣٢م ولم يصمد الجيش اليمني أمام هؤلاء. وبعد معركة محدودة عادوا إلى حيث أتوا. وبذا انتهى الصراع حول نجران إلى الأبد. بعدها زار وفد من ابن سعود صنعاء لتسوية مشكلة الحدود مع الإمام يحيى الذي أبدى امتعاضه ولم يوافق على مطالب ابن سعود، وبدا أن الأمر سيحسم بالحرب، وأن الحرب ستنتهي لصالح ابن سعود وإن كان بعض القضاة يرون أنه من الأفضل أن يلتقي ابن سعود بالإمام في اليمن سعيًا إلى الحل.

استمرت المحادثات حتى ربيع عام ١٩٣٤م عندما قام ابن سعود ـ بعد أن ضاق ذرعًا بمماطلات الإمام ـ بإصدار إنذار، وكانت جيوشه قد أُعدت لمجابهة أي موقف، وكان على قيادتها في عسير الأمير سعود النجل الأكبر وولي العهد، وفي تهامة كانت القوات تحت إمرة الأمير فيصل. وفي ٥ أبريل صدرت الأوامر لهما للتقدم عبر الحدود ما لم تصدر لهم أوامر بعكس ذلك، وعصفت عاصفة هوجاء استمرت لعدة أيام قطعت الاتصال اللاسلكي بالجيش. ومع انقطاع الاتصال مع الرياض عبرت الجيوش الحدود وتقدم الأمير فيصل واحتل ميناء الحديدة المنفذ الوحيد للعاصمة اليمنية خلال ثلاثة أسابيع، ولكن الأمير سعود

واجه صعوبات جمة في المرتفعات الوعرة حيث لم تستطع تنقله الآلي اجتياز كل المناطق، وبذا لم يستطع إيصال المؤن والذخيرة للجبهة.

أزعجت أنباء نجاح الأمير فيصل واحتلاله الحديدة الدول الكبرى، ووصلت سفن حربية بريطانية وفرنسية وإيطالية قبالة الحديدة لتهدئة الأمور. وصدرت الأوامر للأمير فيصل من الرياض بعدم التقدم نحو صنعاء أو على الساحل. وانتهت حرب الثلاثة أسابيع ببدء المفاوضات على أن يبقى فيصل بجيشه في الحديدة، وبذهوله من تهاوي جيشه أمام الغزو الوهابي قبل الإمام يحيى وأوفد أحد أمرائه وقواده، وهو السيد عبدالله بن الوزير ممثلاً له في المفاوضات وبدأ التفاوض في الطائف بحضور أطراف من سوريا ومصر وبعض الدول العربية. ورأس الاجتماعات السيد علي باشا ومعه السيد شكري القوتلي مندوب الرئاسة السورية الذي أصبح رئيساً للجمهورية السورية لاحقًا.

وبدأت المباحثات نحو السلام بحسن نية، وأعرب الملك أنه لا يرغب في احتلال أي جزء من اليمن وأن الموقف الحالي فرض نفسه عليه بتماطل الإمام في حل مشكلة الحدود، وأثبت أن عبدالله بن الوزير مفاوض مقتدر مع أنه كان مضطراً للاتصال بالإمام بين حين وآخر لأخذ رأيه في كل مسألة وكل تفصيل.

ولم يمض وقت حتى كانت اتفاقية الطائف قد أُعدت للتوقيع مع أن بعض الأمور لم ترد في الاتفاقية كالتعويض الذي يجب دفعه للحكومة السعودية مقابل خسارته في الحملة ونفقاتها، إلا أنها انتهت بما كان مرضيًا للطرفين. وبقي أن يقبل الإمام بالاتفاقية ويخوّل مندوبه للتوقيع عليها، ولكنه أمضى

أياماً يفكر، ولم توقع الاتفاقية لعدة أيام. وكان سبب تردده هو الجانب المالي في الاتفاقية، إذ لم يرغب في التخلي عن ماله لابن سعود. وعليه حدد ابن سعود موعداً لإكمال الدفع وقال: إنه سيواصل الحرب ما لم يلبي الإمام مطالبه. ولتبرير موقفه للعالم ولجنة المصالحة أعد الملك مأدبة ظاهرها توقيع الاتفاقية وكان ذلك في عشية انتهاء الإنذار الذي قدمه للإمام، ورأى أن أحضر تلك المأدبة وأراد إنهاء الموضوع على ما تم الاتفاق عليه. وكان عليٌّ بعد المأدبة، أن ألقي كلمة الافتتاح، ثم يأتي هو ويعقب على ما حدث من الإمام من مماطلة وعدم جدية. قمت في هذه الأجواء بإعداد كلمتي وأرسلت مسودتها للملك ليطلع عليها ويعتمدها. وأعاد الملك صياغتها وكان عليٌّ استذكارها وإلقاؤها. ومن حسن الطالع أن تلك اللحظة لم تجئ، وانتهى حفل العشاء دون أية كلمات. ففي صباح ذلك اليوم وصل رد الإمام وكان كل شيء على ما يرام. وتم توقيع الاتفاقية واحتفل في الصباح الباكر بعرض عسكري شارك فيه الملك بنفسه بعرضة الحرب مع أعوانه.

تم تعيين عبدالله الوزير حاكماً لولاية الحديدة ليكون المشرف بنفسه على تنفيذ الاتفاقية وانسحب ابن الملك الأمير فيصل، من الحديدة غير راضٍ. وعاد واحتفل بانتصاره في الطائف، وخرج الملك حتى بلدة رانية لاستقبال نجله الأكبر الذي تكبد مشاق عبور الجبال. وكان لانتصار ابن سعود صدى واسعاً في الأقطار المجاورة التي نظرت لأطماعه بضم اليمن بشيء من الحذر وعدم القبول.

لقد نصت الاتفاقية مع اليمن على رسم الحدود بين البلدين وتم عقد اجتماع لجنة الحدود من الجانبين للعمل على تنفيذ بنود اتفاقية الطائف مما يعني مراعاة القبائل في رسم الحدود واعتبار علاماتها كيلا تحدث مشكلات وسط القبائل والقرى مستقبلاً في كلا البلدين. وبحلول عام ١٩٣٥م اكتملت العمليات وتم رسم الحدود ووضعت أعمدة بلغت ٢٤٠ عموداً على مسافة بلغ طولها ٤٠٠ ميل من ساحل البحر الأحمر حتى ميسم وميدي على أطراف الربع الخالي. وفي السنة التي تلت كنت أجوب تلك المنطقة لرسم خرائط بعض القطاعات من تلك البقاع، وأثناء ترحالي في هذه المنطقة كان لي شرف لقاء عبدالله بن الوزير لما جاء زائراً لمدينة جازان ليطمئن بنفسه ويطمئن الإمام بأن الحكومة السعودية لم تقم ببناء استحكامات على مسافة خمسة أميال على جانبها من الحدود. لقد جعلت الصداقة التي بدأت في الطائف بين عبدالله بن الوزير والملك تنفيذ الاتفاقية سهلة خاصة وأن ابن الوزير هو حاكم الحديدة وممثل الحكومة اليمنية في تنفيذ الاتفاقية.

إن الظروف المعادية التي عاشتها الدولتان خلال العشر سنوات التي سبقت حرب الثلاثة أسابيع دخلت عالم النسيان بعد اتفاقية الطائف، ولكن بقيت هناك بعض المشكلات في أوساط الزيدية في اليمن الذين لم يرتاحوا لانتصارات الوهابيين ولم يكن غضبهم بطيئًا في الظهور. ففي موسم حج عام ١٩٣٥م وصل جمهور غفير من اليمن للحج وأدوا الشعائر كالعادة، وفي اليوم الذي تلا الوقوف بعرفة وبينما كان الملك يطوف بالكعبة مع حرسه وولي العهد هاجمه فجأة ثلاثة رجال من اليمن مسلحين بالخناجر وحاولوا زحزحة

الحجيج حتى يكونوا على بعد يصيبونه منه. وقد جرح الملك وولي عهده قبل تدخل الحرس الشخصي؛ وكشفت التحقيقات أن هؤلاء حجاج يحملون جوازات عليها تأشيرات حج تحمل توقيع أحد أبناء الإمام، ولكن لم تبين عما إن كانت تلك مؤامرة للانتقام لانتصار الوهابيين، أم أن المهاجمين كانوا ممن فقدوا أقارب في حرب ابن سعود باليمن جاؤوا للانتقام بهذه الصورة. ولكن هذه الحادثة لفتت النظر إلى مخالطة الملك للعوام بتلك الطريقة الخطرة في المناسبات الدينية بصفة خاصة، وبعد ذلك اليوم صار الملك لا يشارك العامة الطواف حول الكعبة، وصار حراس الملك يهتمون بتواجده في كل مكان وتأمين الحماية كما ينبغي لشخص مثله.

وبمرور الأيام نسي الجميع تلك الحادثة، ونمت العلاقات وتبودلت الثقة بين البلدين وحكامهما وصار أبناء الإمام يزورون مكة. وتبودلت الزيارات في موسم الحج وغيره خاصة في السنوات الماضية. وزار مسؤولون سعوديون اليمن من وقت لآخر لمناقشة الأمور المشتركة. ومع بداية الحرب العالمية الثانية وصل البلدان إلى درجة عالية من حسن الجوار وكانت مشكلات الحدود قد سُويت ولم يكن هناك ما يعكر صفو العلاقة، وتطورت العلاقات عبر السنين حتى يومنا هذا، ولم تكن هناك مشكلة حدود مع عدن، المحمية البريطانية.

أدى ظهور اليمن كدول ذات وجود سياسي ودخولها منظمة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية إلى التعاون مع نظيراتها العربية في كل ما يهم المنطقة من مصالح مشتركة أو مشكلات، وأصبح لليمن صوت في كل ما يطرأ في العالم العربي. وكان الإمام الكبير قد اعتقد أن جارته المملكة لم تكن مساندة

له فيما طرأ من مشكلات بين اليمن وبريطانيا وإن لم يفقد الأمل في حسن نوايا ابن سعود تجاهه وتجاه نظامه. وكثيراً ما حذره ابن سعود من سكوته على عدم الاستقرار الذي يسود بلده وخاصة في ظل معارضته للعالم الحديث وخلافاته مع نجله الأكبر، ولي عهده وشكوكه في توريثه الإمامة. وكانت اليمن مصدراً لعدم الاستقرار في الدول المجاورة بمواقفها، وكان هناك خوف بأن يؤدي الكساد الاقتصادي في اليمن إلى أنشطة معاكسة، وبنهاية الحرب العالمية الثانية قام أحد أبناء الإمام الصغار وهو سيف الإسلام إبراهيم بالخروج على والده، ولجأ مع بعض أتباعه إلى عدن وصار ينادي بإصلاحات في الحكومة اليمنية. وفي الوقت نفسه قام سيف الإسلام أحمد النجل الأكبر وولي العرش بإبعاد نفسه عن بلاط والده مخافة أن يمسه بسوء، ولجأ إلى تعز وجمع حوله أتباع من رجال القبائل لاستخدامهم لصالحه إذا دعت الحاجة، وحتى وزراء ومسؤولو الإمام الذين بقوا في صنعاء لإدارة البلاد كان ولاؤهم مشكوك فيه كما ظهر لاحقًا، كان بين هؤلاء عبدالله بن الوزير نفسه حاكم الحديدة وعبدالله العمري ومحمد الكبسي.

قام ابن الوزير بالاتصال بابن سعود وطلب دعمه من أجل حكومة جديدة في اليمن لإجبار الإمام لإدخال إصلاحات دستورية في نظام الحكم، ولكن لم يأت أي رد من ابن سعود الذي سوى كل مشكلاته مع الإمام وظل صديقًا وفيًا له منذ عام ١٩٣٤م، وكان قد دعا الإمام مراراً لتحسين نظام حكمه الأوتوقراطي ومشاركة أعوانه الرأي والمشورة، وأمره بتسوية مشكلات الخلافة المشكوكة بشأن نجله الأكبر كيلا تعم الفوضى بموته ويتقاتل أبناؤه.

وفي ذات الوقت كان ابن سعود يتابع أنباء اليمن وكان يردد أن عدم الاستقرار في اليمن قد يسبب متاعب لن تقتصر على اليمن وحده.

وفي ديسمبر ١٩٤٨م وصلت الأمور حداً سيئًا وأعلن سيف الإسلام إبراهيم وفاة الإمام ولكن النبأ استهين به في الرياض، كما اتضح عدم صحته لاحقًا. ولكن يبدو أن جماعة عدن كانوا يتوقعون حدوث شيء ما في ذلك التاريخ وأعلنوا حدوثه تحسبًا لوقوعه فعلاً؛ لأن الإمام كان قد مرض مرضًا عضالاً في تلك السنة ثم انتكس في ديسمبر، وحين اكتشف أنه ما زال حيًا لم يسعد ذلك المتآمرون، فخرجوا للعيان ومن كان منهم في اليمن سيلقى عليه القبض؛ لذا فكروا في عمل أكثر جدية، وفي ١٧ فبراير أبرق مشغل اللاسلكي في صنعاء رفيقه في مكة أن الإمام ورئيس حكومته قد قتلا في كمين أثناء رحلة بالسيارة، وأن اثنين من أولاده قتلا عندما منعا المتآمرين من الوصول إلى الخزانة ومكاتب الدولة. وكان على رأس المتآمرين ابن الوزير الذي سلب السلطة وأعلن نفسه ملكًا، وجاء إبراهيم بن الإمام لينصب وزيراً في «الحكومة الدستورية». حاول ابن الوزير إيجاد دعم له من الدول العربية ومن حكومة عدن، ولكن جامعة الدول كونت لجنة للسفر إلى اليمن وتقصي الحقائق، وقبل وصول الوفد وردت أنباء بأن مطار صنعاء تحت النيران وتوقف الوفد في جدة. وكان عرب البادية الذين وزع عليهم عبدالله بن الوزير السلاح والمال بسخاء هم الذين يطلقون النار، وبدا أن الأمر سينتهي إلى ضرب من الفوضى وعدم الاستقرار ولا أحد يدري كيف سيتعامل المتآمرون مع هذا الوضع؟ وماذا سيفعل سيف الإسلام أحمد للثأر واستعادة عرشه؟

طلب المتآمرون الدعم العسكري من ابن سعود ولكنه قابلهم بالرفض، وإن كان الملك قد استقبل وفد ابن الوزير في قصره بالرياض وسمح لهم بالحديث أمام الناس، وعندما انتهوا التفت إليهم الملك قائلاً: "كيف تجرؤون لتأتوا إليَّ طالبين دعمي لسيدكم الجديد؟ أيها الرجال" وكان يشير إليهم بأصبعه "أنتم قتلة، وأنتم الآن ضيوفي، وبعد أن سمعت منكم لا أستطيع إلا أن أقول لكم غادروا بلادي فوراً".

وساءت الأمور وضاقت الدنيا بالمتآمرين، وكانت خطوات أحمد بن الإمام بطيئة بعد أن ألقى بالسلطة في أيدي المتآمرين، وكان الأمر وكأنه غير واثق من دعم الشعب له، وفي الوقت نفسه لم يستطع عبدالله بن الوزير أخذ زمام الأمور. ورغم أنه أنجز الكثير إلا أنه لم يكن محبوبًا، وقام البدو المسلحين بالتشرذم والتلاحم في بعض المناطق، وعمَّ القتال فيما بينهم دون أهداف محددة، وسيطر البدو على الوضع وعمت الفوضى كل البلاد خارج العاصمة. وكانت القبائل النائية تحت إمرة أمرائها الذين لم يبد تأييدهم لقديم أو جديد. وكان ابن سعود يراقب الموقف عن بعد بقلق، وتحرك أحمد ببطء نحو حجة. وبدأ عبدالله بن الوزير يفقد سلطانه خارج العاصمة، وانقلب الأمر في مصلحة أحمد ابن الإمام، ففي حجة ركز سلطته وبدأ التقدم نحو صنعاء. ولجأ المتآمرون إلى الحصون مخافة الهجوم على صنعاء، ووضعوا أنفسهم في مصيدة. وبذا تمكنت منهم الشرطة أحياء وسلموهم لأحمد وكان ذلك في ١٢ مارس، إذ حملوهم في شاحنات وأوصلوهم إلى أحمد في حجة أمام مرأى الجماهير وأتباع أحمد، وكان على رأسهم عبدالله بن الوزير، فوزعهم

أحمد على سجون البلدة حتى يبت في أمرهم، وفي ١٥ مارس تم إعدام ابن الوزير وبعض رفاقه شنقًا أمام الناس. أما سيف الإسلام إبراهيم ابن الأسرة المالكة فقد لجأ إلى إحدى القلاع في المدينة ومات خلال أسابيع! وكان محمد البدر النجل الأصغر لأحمد يعد ابنًا مزعجًا أفسدته التربية وعاش ليصبح ولياً للعهد، وهناك عبدالله بن الإمام الذي أيد أخاه صاحب الحق وفضل البقاء في الخارج وقبل بمنصب سفير، وظل حسين الأخ الآخر لأحمد حاكمًا على صنعاء، وجعل الملك الجديد عاصمته في تعز. ولم يخرج منها لأنه لم يكن على علم بردود الفعل خارج منطقته، وصار الأوربيون يزورونه في تعز ويذهبون لصنعاء، ولم تكن الحكومة قد سيطرت على البادية خاصة مأرب والجوف، العواصم القديمة لجنوب الجزيرة. وكان لأحمد أطماع في عدن حيث تدين بعض القبائل بالولاء لوالده كما كانت بريطانيا تطالب بها أيضًا، واستخدمت القاذفات لضرب حصون عام ١٩٤٩م في منطقة وادي بيحان المتنازع عليها آنذاك ليفرضوا سيطرتهم بالقوة. وقد أدى حصولهم على امتياز بالتنقيب عن النفط في منطقة شبوة إلى قلق تعز، وزاد الطين بلة وجود فرقة أمريكية أثرية تقوم بالتنقيب في منطقة كهلان في وادي بيحان، منحت لاحقًا حق التنقيب في موقع سد مارب.

كان الملك الجديد غير سعيد بعدم تدخل ابن سعود للوقوف بجانبه في تلك الظروف العصيبة، وإن كان يثمن مساندة ابن سعود المعنوية للنظام الشرعي في اليمن رغم أن الملك لم يكن دومًا معجبًا ببعض الخطوات منذ بداية الأزمة؛ فالمشكلات القديمة مع اليمن قد تم حلها نهائيًا، خاصة وأن

النظام الدولي والدول العربية قد اعترفت بالوضع الحالي في اليمن، وفي نهاية عام ١٩٥٠م بدأت المفاوضات في لندن لحل المشكلات القديمة والمزمنة بين اليمن وبريطانيا وتم التوصل لاتفاق في أكتوبر وانتظر توقيع الطرفين.